

الكفاح الثوري للمسرح الجزائري

Revolutionary struggle of the Algerian theater

طالبة دكتوراه / جوهر غرابي

الدكتور: إبراهيم زلافي

قسم اللغة والأدب العربي-جامعة محمد بوضياف-المسيلة-الجزائر
مخبر انتماء طالب الدكتوراه: مخبر الشعرية الجزائرية، جامعة المسيلة.
djawhar.gherabi@univ-msila.dz

تاريخ القبول: 2020/00/00

• تاريخ الإيداع: 2020/00/00

ملخص:

تسعى هذه المقالة إلى إضاءة جانب من جوانب الكفاح الفكري والثقافي والسياسي المجيد للمسرح العربي عامة والمسرح الجزائري خاصة إبان فترة الاستعمار، ودوره الفعال في دعم ومساندة ومشاركة الشعب الجزائري ثورته ضد الاستعمار الفرنسي. ومعايشة المسرح الجزائري ورواده حالة الحرب، ودعوته إلى الإصلاح ونشره الوعي بين الأهالي، وتعريفه بالقضية الجزائرية في الخارج.

الكلمات المفتاحية: النضال الفكري، المقاومة الثقافية، الثورة الجزائرية، المسرح، المسرح الجزائري.

Abstract:

This article seeks to illuminate an aspect of the glorious intellectual, cultural and political struggle of the Arab theater in general and the Algerian theater in particular.

During the colonial period, his active role in supporting and supporting the participation of the Algerian people revolution against

French colonialism and the experience of the Algerian theater and its pioneers state of war, and call for reform and spread awareness among the people and acquainted with the Algerian issue abroad.

key words: Intellectual struggle, cultural resistance, Algerian revolution, theatrical activity, Algerian theater.

المسرح والثورة الجزائرية:

حملت الثورة الجزائرية قيماً إنسانية حميدة جعلتها منارة للشعوب التي رزحت تحت نير الاستعمار الفرنسي وتطمح نيل حريتها المسلوبة، فألهمت هذه الثورة الفكر النضالي عند المبدعين من شعراء وكتاب آمنوا بهذه الثورة المباركة التي وصل صداها إلى كامل أنحاء العالم؛ وحمل المسرح العربي لواء النضال الفكري، فكانت مقاومة المناضلة جميلة بوحيرد للاستعمار الفرنسي إلهاما لعبد الرحمن الشرفاوي في إنتاج عمله المسرحي مأساة جميلة، والتي أخرجها حمدي غيث، وهو من عمالقة الفن العربي على خشبة المسرح المصري عام 1962م.

لا يخفى على أحد أن الاستعمار الفرنسي قهر الشعب الجزائري، وحاصره فكرياً وسعى إلى طمس هويته، ومحو شخصيته وتدمير ثقافته، وعلى الرغم من هذه القبضة الحديدية التي أنتجت بيئة اجتماعية سيطر عليها التخلف والامية، إلا أن تلك الحفنة من الأدباء الجزائريين التفوا حول قضيتهم الوطنية، وعبروا عن نضالهم بالكلمة من خلال القصيدة أو الأقصوصة أو المسرح.

شهد النصف الأول من القرن العشرين يقظة لدى الشعب الجزائري بظهور الحركات السياسية والجمعيات الإصلاحية وتشكل الأحزاب السياسية، مما ولد إحساساً لدى كافة أطراف الشعب الجزائري بضرورة مقاومة الاستعمار بكل الوسائل المتاحة؛ فكان المسرح واحداً من وسائل مكافحة الاستعمار.

عمل الاستعمار الفرنسي فترة احتلاله للجزائر جاهداً لطمس الهوية الوطنية والقومية للشعب الجزائري، وانتهج سياسة التجويع والتجهيل، ولكن على الرغم من ذلك حافظ الجزائريون على هويتهم باستثناء فئة قليلة ممن تأثروا بالثقافة الفرنسية وتعلموا لغتها.

شيد الاستعمار الفرنسي مساح عدة في كبرى المدن الجزائرية، وكانت حكراً على الفرنسيين فقط، فكان ممن حمل الثقافة الفرنسية من الجزائريين يعرف معنى المسرح، وكانوا يقرؤون

روائعه بالفرنسية طبعاً، ولعل بعضهم كان يشاهد هذه المسرحيات مع الفرنسيين ومناقشتهم فيها"¹.

كما تأثر المسرح الجزائري بالنهضة في المشرق العربي، واستطاع أن يبني له صرحاً يواكب الركب الحضاري، وظهرت مجموعة من المسرحيات في فترات زمنية مختلفة، ومع اندلاع الثورة التحريرية، خرج المسرح الجزائري إلى العلن ليلقي النور على القضية الجزائرية محاولاً إتمام الرسالة النضالية والتعريف بها، حيث منحت الأدب زخماً ثورياً حقيقياً، وعم جوهراً كافة الإنتاج الأدبي، فبسطت ظلالها على مختلف الأقاليم، واستمد منها الأدباء عبقريتهم، فكان المسرح الوليد الشرعي الذي أنجبته الظروف الثورية.

ترجع نشأة المسرح الجزائري إلى عصور طويلة ضاربة في تاريخ الجزائر، فقد رافق مسيرة الشعب الجزائري وكفاحه ضد الاستعمار، ولذا منع الاستعمار بعد دخوله، الجزائر كل نشاط يرى فيه خطراً عليه، وأصدر مراسيم تمنع إقامة فرجة تتعارض مع مآربه، "حيث أصدر أمراً يمنع عروض القاراقوز في 1843م، لأن أغلب العروض من هذا النوع في ذلك الزمان كانت في مواضيعها تهاجم الاستعمار، وتنعت عساكره بالوحشية والهمجية وتفضح جرائمه ضد الأهالي العزل"²، وكانت هذه المسرحيات تقام في أيام معينة ومناسبات خاصة" تقام هذه الفرجة عند الاحتفال بأيام دينية معينة أو مواسم كالحج وغيره، حيث كانت تعرض مشاهد مستمدة من الأساطير والحياة الشعبية"³، كان ينشط هذه العروض قصاصون استطاعوا من خلالها جلب الجمهور إليهم، بما عرضوا من ألعاب وحركات وحكايات، فكانت هذه الإرهافات الأولى لميلاد المسرحية الجزائرية.

يرجع بعض الباحثين نشأة المسرح في الجزائر إلى ما قبل القرن العشرين، وعلى أكثر تقدير إلى الفترة العثمانية بالجزائر (1518-1830م)⁴، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن بداية الحركة المسرحية الجزائرية كانت عام 1921م، السنة التي قام فيها جورج أبيض وفرقته بزيارة الجزائر، وتمثيل عدد من العروض فيها، بينما كانت الجزائر في هذه الفترة محتلة من طرف فرنسا، همها الوحيد محاربة الاستعمار ومقاومته بكل الوسائل، كانت النهضة الثقافية في المشرق العربي تنتعش، وتشق طريقها بقوة وثبات، وكان المسرح يبذر بذوره الأولى على يد مارون النقاش وغيره من الأدباء"⁵.

كانت مسرحيات فرقة جورج أبيض بمثابة أول انتفاضة مسرحية، تفتح عيون الجزائريين المثقفين على وسيلة جديدة وناجعة لتوعية الشعب ومحاربة الاستعمار، قدم مسرحيتين

تاريخيتين بالعربية الفصحى هما، "صلاح الدين الأيوبي و"نارات العرب"، لم يحض هذا العرض باهتمام الجزائريين، وذلك بسبب تدني المستوى الثقافي لمعظم الجزائريين، وضعف العربية الفصحى على ألسنتهم⁶، وهذا نتيجة سياسة الاحتلال التي سعت إلى إبعاد الجزائريين عن مقوماتهم، ورغم ذلك فقد حافظ المثقفون الجزائريون على تواصلهم الدائم مع المشرق العربي والاحتكاك به.

"كانت فرقة جورج أبيض، دافعا قويا زرع بين المهتمين بالمسرح في الجزائر روح العمل المسرحي، وخاصة أولئك الذين يملكون الاستعداد والقابلية ولم تكن فرقة جورج أبيض إلا الشرارة التي دفعت العربية إلى السير على درب الصحيح"⁷.

تجمع بعض البورجوازيين المثقفين وبعض الطلاب وحاولوا تثقيف الجمهور وتنمية ذوقه المسرحي، ف"تأسست أول فرقة مسرحية في الجزائر خلال سنة 1921م باسم: المهذبة جمعية الآداب والتمثيل العربي، إضافة إلى فرقة جمعية الطلبة المسلمين، وجمعية الموسيقى المترية"⁸.

قدمت "فرقة المهذبة جمعية الآداب والتمثيل العربي" ثلاث مسرحيات برئاسة علي شريف الطاهر الذي يعد أول مؤلف مسرحي جزائري في عصر النهضة، "هذه المسرحيات هي "الشفاء بعد العناء" في فصل واحد سنة 1921م، ومسرحية "قاضي الغرام" في أربعة فصول سنة 1922م، ومسرحية "بديع" في ثلاثة فصول سنة 1924م"⁹.

تأسست جمعية أخرى سنة 1922م باسم "جمعية الموسيقى المشرقية"، وعلى رأسها محمد رضا المناصلي الذي أقام كطالب بالمشرق العربي مدة طويلة، قدم مسرحيتين منها: "في سبيل الوطن" بتاريخ 29 ديسمبر 1922م، ويؤكد هذا: "ونظرة عابرة في نصوص أو عناوين المسرحيات التي كانت تمثل في هذه الفترة الأولى من بدء المسرح العربي في الجزائر مثلا في سبيل الوطن، وفتح الأندلس وغيرهما، يعطينا صورة واضحة المعالم عن التفكير الشعبي السائد حول مهمة المسرح ورسالته في خدمة المثل الوطنية العليا"¹⁰، لقيت مسرحية "في سبيل الوطن" نجاحا كبيرا، وإقبالا عريضا من الجمهور الجزائري، مما دفع بالسلطات الفرنسية إلى منع عرض هذه المسرحية مرة أخرى.

عرف المسرح الجزائري منذ 1926م، شكلا آخر يختلف عن الأول، من حيث اللغة المستخدمة والمضمون، وكان أبرز مظاهر هذا التحول هو استخدام اللغة العامية في الحوار بدل الفصحى، والتحول من الدراما الاجتماعية إلى الكوميديا، والجمع بين الموسيقى والغناء

والرقص أيضا، ابتداء من سنة 1926م ظهر أقطاب في المسرح الجزائري دفعوا به خطوات عملاقة، منهم على الخصوص سلافي علي، وهو تلميذ جمعية علماء المسلمين الجزائريين الذي كتب مسرحية هزلية بعنوان "جحا"¹¹، ويجمع الدارسون لتاريخ المسرح الجزائري أن مؤسسي هذه الحركة هم: علي سلافي المعروف بـ (علالو) ومحي الدين بشطارزي، ورشيد لخضر المعروف بـ (رشيد القسنطيني)، ويختلفون فيما بينهم فيما يخص المؤسس الأحق بالتسمية من بين هؤلاء الثلاثة، أدى كل واحد منهم دورا أساسيا في إنشاء مسرح جزائري حقيقي، كان لعلالو فضل السبق بعرض مسرحية "جحا" التي يقول عنها عبد المالك مرتاض: "أول مسرحية فهمها الشعب الجزائري، وتدوقها كانت مسرحية جحا التي تم تمثيلها في أبريل 1926م، وقد ألفها علالو، ودحمون... وأعيد عرضها عدة مرات"¹²، فقد استقطبت الكثير من الجمهور، ولقيت إقبالا كبيرا حيث تفاعلوا معها وتابعوها بإمعان، "ومع سلافي ظهر محي الدين باش طارزي (1897-1986م) الذي كتب كل أعماله بالعامية لاعتقاده أنها أقرب إلى فهم الجمهور، وبالتالي فهي أقدر وأسرع في تبليغ الرسالة وكان يطمح إلى هدف وحيد وهو الرفع المعنوي والأخلاقي للمسلمين، ومحاربة الآفات الاجتماعية، وتأكيد للهوية الثقافية الإسلامية العربية"¹³.

قدم رشيد القسنطيني (1887-1944م) الكثير من الأعمال المسرحية على خشبات المسرح الجزائري باللغة العامية، معالجا فيها قضايا وأمراض اجتماعية، وتميز عمله بالنضال السياسي، والدفاع عن تاريخ وهوية الشعب الجزائري¹⁴.

توقفت الحركة المسرحية أثناء قيام الحرب العالمية الثانية، بسبب تشديد الرقابة الفرنسية على الجزائريين، وظهور الأحزاب السياسية الوطنية في شكل جبهة مناهضة للاحتلال، ولم يكن المسرح بعيدا عن هذه التطورات، لذلك تم تشديد الخناق عليه لدوره الكبير في إلهام وإذكاء الروح الوطنية في الجماهير.

كما ظهر التأليف المسرحي المكتوب باللغة الفصحى، والذي قاده "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، حيث فتحت المدارس وتصدت بالعلم للشعوذة والتزييف الذي طال القيم الإسلامية السمحاء، فقد تستر الدراويش والمشعوذون وراءها للاحتيال والنيل من عقول الضعفاء.

" كسرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الجمود بظهور بعض الأعمال ذات النزعة الإصلاحية على الرغم من كيد الاستعمار"¹⁵، تراوحت أعمالها المسرحية بين الدينية

والتاريخية والسياسية والاجتماعية، إلا أنها عموماً لم تمثل على خشبات المسرحية الوطنية المعروفة.

تعد مسرحية "بلال" للشاعر محمد العيد آل خليفة نقطة تحول في تاريخ المسرح الجزائري، لا لأنها أول عمل شعري مكتمل فحسب، وإنما لأنها أيضاً تعبر عن اتجاه جديد تجلّى في المضمون التاريخي إلى جانب الناحية الدينية والتربوية، وقد قدمت هذه المسرحية الشعرية ما عاناه بلال رضي الله عنه في سبيل عقيدته، "وكان هذا الكيد وهذا القهر دافعا قويا للشاعر محمد العيد آل خليفة (1904-1979م) لأن يكتب مسرحية "بلال" سنة (1939م) لحث الشعب الجزائري على الصبر لنيل حريته كما نالها بلال"¹⁶.

بعد سنة 1945م تأسست فرق مسرحية، وظهرت مسرحيات فصيحة منها "الناشئة المهاجرة" لمحمد الصالح رمضان سنة 1947م، مثلت لأول مرة بتلمسان، وله أيضاً "الخنساء"، وظهر لأحمد توفيق المداني مسرحية "حنبل"، ولعبد الرحمان الجيلالي "المولد"، ولأحمد رضا حوحو "صنيعة البرامكة"، و"ابن الرشيد" و"أبو الحسن التميمي"، وعنبرة " مثلت سنة 1950م"¹⁷.

كما أسس رضا حاج حمو فرقة مسرح الغد عام 1946م، والظاهر فضاء فرقة هواة المسرح العربي سنة 1947م الذي اقتبس مسرحية الصحراء من مسرحية "يوسف"، وظهر أيضاً شباح مكي الذي كتب مسرحيات عرضت ببسكرة والجزائر العاصمة¹⁸.

" كان رضا حوحو يدير جمعية "المزهر القسنطيني للموسيقى والتمثيل" التي تأسست سنة 1948م، وأصبحت تمثل مكانة مرموقة في الوسط الفني، وقدم من خلالها أحمد رضا حوحو مسرحيات بأسلوب ساخر، ونقد حاد لاذع للأوضاع الاجتماعية والسياسية"¹⁹، وكان هدفه إرساء قواعد مسرح قوي وظيفته إيقاظ الشعب الجزائري وبث الروح الوطنية فيه.

تنوعت العروض المسرحية وتباينت مضامينها بين الاجتماعية والتاريخية والسياسية وخاصة الثورية، مما جعل الاحتلال يفرض الرقابة عليها، ومع اندلاع الثورة التحريرية المسلحة اختفت جل هذه الفرق المسرحية، حيث أصبح الاهتمام منصبا على الأحداث السياسية والعسكرية.

اهتم المسرح أثناء الثورة التحريرية بموضوع الثورة ودعمها، والإشادة والتعريف بالقضية الجزائرية... فاضطر المسرح الجزائري إلى التوجه إلى الخارج، لإتمام رسالته النضالية، وظهرت مسرحيات إلى النور، منها "نحو النور" و"أولاد القصبة" "لحميد رايس" و"الخالدون" و"دم

الأحرار" لمصطفى كاتب"، فبعض هذه المسرحيات كتب بالعربية الفصحى، وبعضها كتب بالعربية العامية²⁰.

كتب عبد الرحمان كاي مسرحية "دم الحب" سنة 1953م ومسرحية "الشبكة" سنة 1957م، و"السفر" و"الكوخ" سنة 1958م و"القراقوز" سنة 1960م، ولكن هذه المسرحيات الكبيرة التي ظهرت أثناء الثورة التحريرية، ورسمت معالمها، وعبرت عنها بحرارة لم تصل نصوصها، إلا ما ألف أبو العيد دودو وعبد الله ركيبي من مسرحيتين هما على التوالي: "التراب" و"مصراع الطغاة" تعرض فهما لقضايا وطنية عايشها إبان الثورة التحريرية المسلحة. كتب أيضا أبو العيد دودو في نفس الفترة مسرحية اجتماعية تحت عنوان "البشير" وهي تعالج ظاهرة الاعتقاد السائد بمس الجن للبشر، "وليس أمامنا إلا نص واحد هو نص "مصراع الطغاة" لعبد الله الركيبي الذي نشره بتونس سنة 1959م، والذي حاول فيه أن يؤرخ للثورة التحريرية من بداية التحضير لها واندلاعها إلى انتصارها على الطغاة المعتدين"²¹.

كما ألف طاهر وطار مسرحية سنة 1961م بعنوان "الهارب" والتي كانت الثورة الجزائرية المادة الحقيقية لها²²، فكانت الثورة التحريرية زادا معنويا للمسرح الجزائري، ولعقول أديبائه، وخيالاتهم، وإبداعاتهم، فراحوا مستلهمين أحداثها بكل إبداع مشكلين من خلال تمثيلها على الخشبة وعياً ثورياً تحريراً للجماهير محاولين توعيتهم، وخلق فيهم روح ثورية تطالب بحريتها. سجل المسرح الجزائري لوحات لبطولة الشعب في مقاومته للاحتلال، وأعطت الثورة دروساً قيمة للشعوب المضطهدة المسلوقة الحرة، ومنحت الأدب زخماً ثورياً حقيقياً، حيث عم جوها كافة الإنتاج الأدبي، وبسطت ظلالها على مختلف الأقلام، فأنتجت أدباً ثورياً استمد عبقريته، وعظمته من أحداث هذه الثورة المباركة وإن كان ما قدم يبقى دون عبقرية الشعب الجزائري، وثورته التي ستبقى منبعاً يفيض بالعطاء والعبقرية، والإبداع"²³.

فإن كان دور الأديب قبل الثورة التحريرية متمثلاً في بث روح المقاومة في الشعب، وتوعيتهم وإذكاء الروح الوطنية فيهم، وربطهم بتاريخهم وأرضهم، فإنه أثناء الثورة لم يقل دوره أهمية والتزاماً نحو قضية وطنه، فقد ساهم في تجنيد الجزائريين للإسهام في الثورة، والاستمرار في القضاء على الاحتلال وطرده من البلاد.

استمر حضور الثورة التحريرية في المسرح الجزائري بعد الاستقلال، فمن بين المسرحيات التي ظهرت للعلن وتغنّت بالرؤية الثورية وزخرت بمضامينها:

- مسرحية "استراحة المهرجين" لنور الدين عبة.

- مسرحية "احمرار الفجر" لآسيا جبار.

خاتمة:

في نهاية هذه المقالة أشير أولاً إلى جملة من المراجع التي اعتمدها من أجل التدقيق في المعلومات، وثانياً إلى أهم النتائج التي تم التوصل إليها وهي:

-لقد كان للثورة الجزائرية صدى كبيراً في الوجدان الوطني والعالمي، إذ ألهمت قرائح الأدباء وفتقت مواهبهم، فتفاعلوا معها وقدموا للمسرح نصوصاً وعروضاً ثورية متميزة في مجال التزامهم بالثورة.

-استطاع المسرح الجزائري أن ينشر الوعي بين الجزائريين بطريقة بسيطة تصل إلى قلوب الجزائريين وعقولهم، دون أن يشعر الاستعمار، وإحياء تاريخ الجزائر واستحضار أبطاله والدعوة إلى الاقتداء بهم، وإيقاظ الحمية في نفوس شباب الجزائر، وإحياء اللغة العربية الفصحى.

-مقاومة المسرح للاحتلال الفرنسي بطريقة غير مباشرة من خلال عرض بعض المسرحيات التي تذكر الشعب الجزائري بمقاومة أجداده للاحتلال.

قائمة المصادر والمراجع

1. أنيسة بركات، أدب النضال في الجزائر منذ 1945م حتى الاستقلال، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992م.
2. عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982م.
3. عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
4. عز الدين جلاوي، النص المسرحي في الأدب الجزائري، دط، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م.
5. غنيهي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، لبنان، 1973م.

هوامش البحث:

- ¹ - عز الدين جلاوي، النص المسرحي في الأدب الجزائري، دط، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م، ص 37.
- ² - عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص 213.
- ³ - المرجع نفسه، ص 215.
- ⁴ - ينظر، المرجع السابق، ص 25.
- ⁵ - ينظر، المرجع السابق، ص 38.
- ⁶ - ينظر، أنيسة بركات، أدب النضال في الجزائر منذ 1945م حتى الاستقلال، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 192.
- ⁷ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 40.
- ⁸ - أنيسة بركات، المرجع السابق، ص 192.
- ⁹ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 41.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، ص 42.
- ¹¹ - ينظر، المرجع نفسه، ص ن.
- ¹² - عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدب في الجزائر (1931-1954م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص 198.
- ¹³ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 43.
- ¹⁴ - ينظر، المرجع نفسه، ص 44.
- ¹⁵ - عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص 193.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص 212.
- ¹⁷ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 44.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص 45.
- ¹⁹ - المرجع نفسه، ص 46.
- ²⁰ - المرجع نفسه، ص ن.
- ²¹ - المرجع نفسه، ص ص 46-47.
- ²² - ينظر، المرجع نفسه، ص 47.
- ²³ - المرجع نفسه، ص 103.